الوحدة : الدرس الأول والدرس الأخير !

بقلم أحمد عثمان

- ١ -

الدرس الاول والدرس الاخير الذي يلح على الانسان العربي ـ حين يقتلع ذاته من لجج هذه المأساة الغامرة ويرتفع بذاته عن الالم الى الصبر ، وعن العبرة الى الاعتبار ، وعن الصور الرهيبة للواقع الذي ينزف الدم ويغص بالجثث ويطارد العرب نحو الصحراء ، الى الصورة البهيجة للمستقبل الفرح الذي لا بد منه ـ الدرس الاول والاخير الذي يتراءى له على اي نحو اتجه ، وفي اي سبيل سار ، وايا كان المستوى الفكري الذي يعيش فيه هو الوحدة : الوحدة كلها ، لا قدر منها ولا شكل من اشكالها ، الوحدة بكل ما تعنيه ، وما تصل اليه وما تملك ان تتمثله ... لانها قدره الذي يستطيع ان يغالب به كل قدر مصنوع .. قدره الالهي والانساني في آن واحد ، على حين لا تخرج الاقدار الاخرى التي يغالبها عن ان تكون نوعا من الاصطناع او التمويه .

- ٢ -

ان هذا الدرس لا يتحدث عنه في هذه الايام التي رافقت اسبوع الآلام « ٥ ـ ١٢ حزيران » هؤلاء الذين يبدون متميزين او كالمتميزين .. لا يتحدث عنه هؤلاء الذين يجلسون على الكراسي المريحة . دوائر الدولة او قاعات الجامعة او غرف الادارات والمؤسسات ، وانما كان يتحدث به ، ـ حديث الحرب او حديث النداء ـ كل انسان عربي .. من اولئك الذين كانت ايديهم على الزناد في الجبهة ، وآذانهم الى « الترانزستور » يستمعون فلا يكادون يصدقون .. من اولئك الذين كانوا يرقصون رقصة الشهادة في لهب المعركة ثم يودعون دنياهم الى اخراهم .. كل اولئك الذين كانوا يتيهون في الجبال والبراري وقد تورمت اقدامهم وزرعوا الطريق بين مواقعهم القديمة ومواقعهم الجديدة دماء من دماء قلوبهم ..

ان هذا الدرس لم يكن يتحدث به هؤلاء الذين يتحلون بالمعرفة ، وانما كان يتحدث به اولئك الذين نعتز بهم من ذوي الحس السليم والقلب الطاهر والنفس المؤمنة التي لم تفسدها عقد الافكار والانظار والحزبيات والمصالح .

لم يتحدث به الكبار والمجربون والذين عاشوا مأساة ١٩٤٨ السابقة وانما تحدث به ، في براءة وعفوية وصدق ، هؤلاء الذين في سن براعم الورد .. سمعته من الصغيرة التي لا تكاد تدرك تسأل اباها : وماذا عن هذه الجبهة ، وماذا عن تلك .. ماذا فعل اولئك ، وماذا فعل هؤلاء ؟ . وكانت تصوغه سؤالا ساذجا حينا وسؤالا منكرا حينا اخر : اهؤلاء ، يا بابا ، معنا ؟ فعلوا فعلنا ؟.. دخلوا المعركة ؟ وصلوا اليها ؟.. وكان يقوله الصغير الفتى في ختام دراسته الابتدائية او قريبا منها حين ينشر عينيه على خريطة الوطن العربي المثبتة في حائط الغرفة في كل الصيغ التي كانت تتيحها له الاخبار والاحداث ويتيحها له القلق والتساؤل ، ويبعث عليها الحس السليم المستقيم .

لم يتحدث به الكبار القعدة الذين رمت بهم شيخوختهم في احضان البكاء لا يملكون غيره .. ولا القواعد اللواتي كن يغالبن الرعب وعيونهن الى السماء وآذانهن الى اجهزة الاستماع .. وانما تحدث به العامل العائد من مصنعه حين كان يعود ، والذاهب الى عمله حين يذهب . كانوا جميعا يقيسون بالاقلام والمساخر وعقد الاصابع والسنتمترات المسافة بين طولكرم والساحل ، وبين رام الله وتل ابيب ، وبين طرف قطاع غزة وشرم الشيخ ويسألون منذ الساعات الاولى كيف لا تقترب المعركة من نهايتها ؟.. أهي بعيدة عن هذه النهاية ؟.. وما دروا جميعا ان عنصرا اساسيا في المعركة كان لا بد له ان يكون ، ولكنه لم يتوفر على النحو الذي كان يجب ان يتوفر ..

- ٣ -

هذا الدرس ليس جديدا ولا محدثا .. ليس بدعا من هذا البدع الكثير الذي يملأون به الذهن العربي على حاجته اليه حينا وعلى غير حاجته اليه في اغلب الاحايين .. ليس عصارة من عصارات هذا الفكر الحديث المجلوب يحاول ، بطريقة واخرى ، ان يطمس صفاء الذهن العربي او يحول به عن محاوره الاساسية الى محاور موهومة .. ويمضي به ، احيانا ، في المتاهات .. انه ليس معادلة عويصة لا يقدر عليها الا الذين تمتلىء عقولهم باسماء الكتب والمفكرين والمذاهب ، ويميزون في ادراج مكاتبهم بين الالوان والاتجاهات .. ليس كشفا من هذه الكشوف التي تتصل باسرار الطبيعة او خفايا الحياة .. انه ليس شيئا من ذلك ابدا .. وانما هو هذه البدهية الاولى التي ملأت الوجود العربي دائما ، على مراحل الحياة كلها ، وانغمست في الضمير العربي السليم على مدى العصور

كلها ، وكانت تجري من الحياة العربية مجرى النفس من الكائن الحي .. حقيقة ليس قبلها في الوجود الفعلي والوجود الذهني ، وليس بعدها .. لانها الغلاف الحيوي الذي تنشأ ، ويجب ان تنشأ ، في داخله كل الحقائق الاخرى .. ودرس من هذه الدروس الاولى التي تتقدم ، او يجب ان تتقدم ، التفكير العربي ، لانها جوهر الوجود العربي ، والتي يجب ان تحتاط الفكر العربي لانها وعاء التفكير العربي ، والتي يجب ان تتفاعل مع كل جزيئة من جزئيات هذا التفكير وان تصبغه لانها شرط سلامته ومادة صبغه .

— ٤ —

ولم يكن هذا الدرس آنيا ، وما كان له ان يرتبط بآن .. انه ليس علاج الحياة العربية الحاضرة ، ولا دواء النكسة الماثلة ، ولا البلسم الذي يلقي على جرح اسبوع الاحزان .. ولكنه الدرس الذي يرافق سير الحياة العربية بالعرب .. لا يرافقها فليست هذه هي الكلمة التي اريد ان اقولها ، وانما يصوغها .. يخلقها خلقا سويا حين يكون فيها ، وتكون خلقا مشوها حين يغيب عنها .. وعلى قدر ما يكون من تمثله فيها يكون تحقيقها لخيرها واقترابها من غاياتها .. وما احسب ان حقيقة اخرى تصدق ، في نطاق الفكر وفي نطاق الواقع على السواء ، كما تصدق هذه الحقيقة، وتصدق في الماضي البعيد والماضي القريب كما تصدق في الحاضر الماثل والمستقبل المأمول .. وتصدق في احداث المشرق العربي كما تصدق في احداث المغرب العربي .. هذه الحقيقة هي الارتباط بين المجد العربي وبين الوحدة العربية .

— ٥ —

ان هذا الدرس البدهي يجب ان لا يكون شعارا .. ان وضعه موضع الشعارات في القول والقذف به الى غياهب العدم في التطبيق — ان التقرب به الى نفوس الجماهير والتباعد به عن دنيا الواقع ، الاحتماء وراءه في كل مرة تكون فيها الضربة قريبة او كالقريبة والتخلي عنه حين يرتفع الشبح المصلت — الحديث عنه في اغاني الاذاعة تبعا لآنية التفكير او مصالح الساعة الطارئة وسحقه في غير ذلك — بان استخدامه مخدرا للجماهير او وسيلة من وسائل الالهاء او حجة نظرية او جوازا من جوازات المرور .. ان ذلك كله كان جريمة من اضخم الجرائم التي يرتكبها العرب في حق انفسهم .. ويخربون بيوتهم بأيديهم .. انه الحاد فكري ، وجريمة حياتية ، ووأد للمستقبل العربي .

— ٦ —

هذا الدرس يجب ان يخرج من منطقة ان يكون شعارا او وسيلة الى منطق ان يكون منطلقا وان يكون واقعا .. آن له ذلك لا في حساب الحقيقة العربية فهو من الحقيقة العربية نواتها وصيغها وجوهرها .. بل في حساب العمل العربي الذي يضل الطريق بين حين واخر كلما ضل عن هذه الحقيقة او غفل عنها .

ان ايام اسبوع الاحزان هذه يجب ان تحرق او يجب ان تكون قد احرقت كل ما كان يحيط بهذه الوحدة من اشواك وعراقيل على الصعيد النفسي وعلى الصعيد المادي ، لا في نطاق الجماهير البريئة بل في نطاق الجماعات والاحزاب والهيئات المسؤولة .

ا — فاما الاشواك التي كانت كالابر المسمومة على الصعيد النفسي للاحزاب والحكومات والعروش فقد آن لها ان تحصد وان تقتلع جذورها .. ان الذين بكوا — جميعا أيا كانوا في ايام الاحزان ، في اواسطها او اواخرها، جديرون ان تترك هذه الدموع قرحة على وجوههم كقرحة قنابل « النابالم » على وجوه الجنود العرب .

اما الذين استعصوا على البكاء فجديرون ان تفقأ الدموع التي اختزنوها : كبرا او تكبرا ، تساميا او تجبرا ، استعصاء او تبلدا — ان تفقأ بياض اعينهم ، حتى يظل اولئك وهؤلاء يذكرون الام الجماهير ساعة يناقشون في الصيغ والعبارات ويختلفون في الازمنة والامكنة .. وحتى يعرفوا معرفة مطلقة ، مطلقة في الزمان من الازل الى الابد ، ومطلقة في المكان من حبات الرمل المنجرفة مع الموج على شاطىء الدار البيضاء واغادير ، الى حبات الرمل على شاطىء الخليج ، ان وجودهم كله — في غير الوحدة ، وجود كاذب ، او خاطىء ، وانه ما لم يكن بالعمل للوحدة وبالوحدة فهو وجود تائه او منهار .. وانه ليس هنالك عاصم من امر الاستعمار الآثم الا هذه الوحدة .

ان هؤلاء الذين راوا الموت يحصد مواكب الشباب العربي في كل جبهة جديرون ان يذكروا ان الموت قريب منهم .. ان لم يكن بأيدي اعدائهم فهو بأيدي شعوبهم .. ولذلك فان كل تضحية اخرى في سبيل الوحدة انما هي لمصالحهم قبل ان تكون استنقاذا لكراماتهم .

قريبا

مَاركسية القرن العشرين

للكاتب الفرنسي المعروف

روجيه غارودي

ترجمة نزيه الحكيم

منشورات دار الاداب

ب ـ واما الاشواك والعقبات على الصعيد المادي .. تلك التي كان يتحدث بهـا المغرورون والمخدوعون ، المضللون والمضللون على السواء في اعقاب نكسة الوحدة « ايلول ١٩٦١ » واولئك الذين اشبعونا الى حد الاكتظاظ والقيء احاديث عن الصعوبات والعقبات، والذين تجلببوا بالعقل ، كذبا او غفلة ، فحدثونا عن الاخطاء والتوجيهات .. والذين نفضوا كل عقولهم ليرصدوا الفروق بين المستويات الاقتصادية والفكرية و .. وليتحدثوا عن الاعمال التمهيدية التي يجب ان تسبق الوحدة ، عن تنسيق المصالح ، رعاية المصالح المحلية ، عن الاف الامتار من الاقمشة اين تباع ، عن اسعار الجنيه والليرة والدينار كيف يمكن ان تتناسق .. عن الاف من المساحات ـ لا تعدل عشر الذي ضاع اليوم ـ هل تزرع قمحا مثلا ام ذرة ام قطنا ؟ عن عشرات من الناس جاءوا من قطر الى قطر فأخلوا بالتوازن .. عن هذه او تلك من القضايا الجزئية التي ليست شيئا في حياة الشعوب .. الى هؤلاء واولئك فليذكروا اليوم ما كانوا يقولون .. وليفتنوا في ترتيب قوائم الربح والخسارة ، وليتحدثوا ان استطاعوا عن الكرامة او عن التوازن ، وعن الفروق النفسية ، وعن الموظف الذي جاء من هنا ولم يذهب بديل له من هناك .. ليتحدثوا عن الحزب الذي قبل ان يذوب والحزب الذي لم يقبل .. الذي تظاهر والذي لم يتظاهر .. وعن المؤسسة التي قامت مبتدئة من الاعلى ، من القيادة او التي قامت مبتدئة من القاعدة .. ليتحدثوا عن ذلك على انه انحراف كبير لا بد من تجاوزه في هذه المرحلة .

لم يعد اذن على الصعيد المادي اية مجالات لحساب وتحفظات .. لان الانسان العاقل لا يضحي بالبعير وما يحمله من اجل ان يحتفظ بالقشة العالقة في ذنب البعير .

ـ ٧ ـ

درس الوحدة هذا ليس في حاجة اذن الى دراسات من مثل هذا اللون .. وهو كذلك ليس في حاجة الى برامج ومخططات تقنية قبل ان تحققه ، وتقضي عليه قبل ان تنشئه .. ان القوائم الطويلة من المصطلحات يجب ان تزول ، ان تحرق في لهب مدفع متفجر من مدافعنا التي تركت في الجبهات .. ان الاف الجنود الذين كانوا يحطمون « الترانزستور » بحجارة ارض الوطن في ساعات المعارك كانوا يبصقون على كل هذه المصطلحات والقوائم : الدراسات ، والتمهيدات ، والوحدة المنشودة ، والوحدة المرتقبة ، والوحدة الكبرى ، والوحدة الصغرى ، والوحدة المدروسة ، والمرحلية ، والتدرجية .. كانوا يلعنون التعقلية ، والمصلحية ، والبيئية ، والاقليمية .. كانوا من اعماقهم يشتمون الذين يتحدثون عن كل هذه الاشياء على سبيل التثبيط والتفتيت .. لانهم راوا ـ في لهب المعركة ـ ان كل الفروق كانت فروقا كاذبة .. كل المراحل كانت مراحل اضعاف .. كل التدرج كان تدرجا كاذبا لم يغير الوضع عن محوره الاساسي .. ان حرارة اللهب اذابت كل هذه الاشياء في اعينهم وفي اعين الناس وراءهم .. وان الذي تم في خلال اسبوع الاحزان يجب ان يظل هو المسيطر بعد ذلك في اسابيع الوقفة الجديدة .

ـ ٨ ـ

ان هذا الدرس ، درس الوحدة ، يجب ان يكون هو وحده هو الذي يسمع ، وهو وحده الذي يرى ، وهو وحده الذي يعيش وهو وحده الذي يبقى .. انه يجب ان يكون كذلك مقياس كل تفكير ، ومقياس كل عمل ، وميزان كل سلوك .. ان مدى ما يكون من الانصياع له ، وتطبيقه، والنفاذ به الى اعماق الواقع العربي، هو الذي يهم جماهير العرب وهو الذي يملؤها .

ولن تخدع الجماهير بما دون ذلك من مظاهر والوان وتراتيب .. ولن تخدر « بتعاطي » التمثيل السياسي وتبادل السفراء ، وتناقل الرسائل الشفوية والتحريرية ، ومؤتمرات الصحافة ، واحاديث الاذاعة ، وتزاور الوفود وقفزات الرؤساء من بلد الى بلد ومن عاصمة الى عاصمة والبرقيات المتبادلة في اعقاب هذه القفزات من الارض او من الجو ، ولا بالمؤتمرات والمهرجانات وفرق التمثيل الشعبي والغنائي ، لان هذه كلها قشور لا بد لها من حقيقة اصيلة قبلها .

ـ ٩ ـ

ان هذا الدرس الذي تستخلصه الجماهير مرة اخرى ، هو الذي تهمس به حين لا تستطيع الحديث عنه، وتجأر به كلما وجدت الى الجأر السبيل .. انه ليس اثرا من اثار هذا الغليان العاطفي ، وليس هذا الحشد الذي يكثرون من الاشارة اليه .. فنحن يجب ان نكون ابعد ما نكون من الحشد الذي لا يلبث ان يتفرق ، والجمع الذي لا يلبث ان يتبدد ، والعاطفة التي لا تلبث ان تنسى .. ان هذا الدرس ينشد الحشد في عمل منظم ، والجمع في غاية موحدة ، والتذكر الدائب الذي لا ينسى الجرح ولا توبة الجرح ، ولا تغيب عنه جزئية صغيرة من جزئيات المأساة حتى يظل دائما منطلقه منها .

ان هذا الدرس ليس امنية ، ولا تخيلا ، ولا مثلا اعلى .. ولكنه وجود ، وواقع .. وليس وراءه ولا قبله ولا يوازيه وجود اخر .

انه وحده هو الذي يحول بيننا وبين ان نعيش مقوسي الظهر منحنين على الخنجر الذي في صدورنا .. وحده الذي ينتزع هذا الخنجر المغموس ويرد الينا وقفتنا الكريمة .. يعيد الينا استواءنا ويطلق قوانا نحو الهدف .

احمد عثمان